يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولوا الالباب

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاحد ١٦ محرم الحرام سنة ١٣١٩ — ٥ مايو (ايار) سنة ١٩٠١)

المحاورات بين المصلح والمقلد

« المحاورة السادسة — الاجتهاد والتقليد »

لما عاد الشيخ والشاب للمباحثة ، والمثافنة للمنافثة ، قال الاول

(المقلد) : انني من يوم سمعت منك تلك الكلمة الغريبة وانا لا انفك مشتغلاً بالمطالعة في باب الاجتهاد من كتب الاصول استعداداً لهذا اليوم واعني بالكلمة ما لم تنسه من قولك ان فيما قالوه عن المهدي كلمة إصلاح وهي إبطال المذاهب وجعل المسلمين على طريقة واحدة كما هو اصل الإسلام واني اعتقد كما يعتقد كل من يعرف الاسلام وعلومه انه لو لا الائمة الاربعة لضاع الدين بالمرّة وأن لهم رضى الله تعالى عنهم المنة في عنق كل مسلم الى يوم القيامة وان الخروج عن مذاهبهم مروق من الدين والعياذ بالله تعالى

(المصلح) : لا انازعك في مدح الأئمة رضى الله تعالى عنهم ولا انكر شيئاً من فضلهم ولكنني اقول كلمة تعرف بها بطلان قولك الاخير

وهي ان الاسلام قبلهم كان خيراً من زمنهم وكان فى زمنهم الذى لم يقلدهم فيه الا قليل من الناس خيراً منه فيما بعده من الأزمنة التى اقامهم الناس فيها مقام الأنبياء بل ان من اتباعهم من قدموهم عليهم عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح فانهم يردون كلام النبي المعصوم مع اعتقادهم صحة سنده لقول نقل عن امامهم ويتعللون باحتمالات ضعيفة كقولهم يحتمل ان يكون الحديث نسخ ويحتمل ان عند إمامنا حديثاً آخر يعارضه . ولا شك ان هؤلاء المقلدين قد خرجوا بغلوهم فى التقليد عن التقليد لأنهم لو قلدوا الائمة فى آدابهم وسيرتهم وتمسكهم بما صح عندهم من السنة لما ردوا كلام المعصوم لكلام غير المعصوم الذى يجوز عليه الخطأ والجهل بالحكم . وكانوا يأمرون بان يترك قولهم اذا خالف الحديث . بل تسلق هؤلاء الغالون بمثل ذلك الى القرآن نفسه وهو المتواتر القطعي والإمام المبين وتجرأ بعضهم على تقرير قاعدة البابوات فى الاسلام وهي انه لايجوز لأحد ان يأخذ دينه من الكتاب لأنه لا يفهمه وإنما يفهمه رجال الدين فيجب عليه ان يأخذ بكل ما قالوا وان خالف الكتاب ولا يجوز له ان يأخذ بالكتاب اذا خالف ما قالوا بل لا يجوز له ان يتصدى لفهم أحكام دينه منه مطلقاً . ومثل هذا قال بعض فقهائنا قال : لايجوز لأحد ان يقول هذا حلال وهذا حرام لأن الله قال كذا او لأن رسوله قال كذا بل لأن فلاناً الفقيه قال كذا . وهذا مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم » الحديث . وفى آخره قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ »

(المقلد) : ليس كل ما فعله اليهود والنصارى باطلاً فيكون اتباعهم

فيه باطلاً على ان الاتباع المذموم هو ما كان عن قصد ولم يقصد المسلمين قط اتباع البابوات وغيرهم من النصارى وإنما اتبعوا فى ذلك الدليل الذى قام عندهم على وجوب التقليد على من يعجز عن الاجتهاد ومن كان عاجزاً لا يجوز له ان يتحكم بفهمه الضعيف بل عليه ان يأخذ باقوال الثقات الذين يثق بفهمهم الدين حق فهمه

(المصلح) : المذموم فى ذاته يذم فاعله مطلقاً فان اقتحره اقتحاراً كان الذم عليه وحده وان سنه واتبعه عليه غيره فعليه إثمه واثم من عمل به وان كان فيه مقلداً فهو اخس ، واحرى بالتعس ، ولا اطيل الآن فيما اخذه المسلمون عمن سبقهم فانه يشغلنا الآن عن جوهر البحث وانما اقدم لك مسائل فى بحث التقليد تكون مقدمات للاصل الذى اريد تقريره فى الوحدة الاسلامية ونسبة المذاهب اليها فأقول

(المقدمة الاولى) ان العلوم الكسبية التى توجد بوجود الحاجة اليها تنقسم مسائلها الى قسمين قسم يسهل فهمه من دليله او بدليله على كل واحد من الناس وقسم يعسر اخذه من الدليل على الاكثرين وينهض به فى كل عصر أفراد مجتهدون يتفرغون له ويستقلون ببيانه ويتبعهم من يحتاج الى ذلك من سائر الناس ولم يوجد علم من العلوم الحقيقية تعلو جميع مسائله عن تناول عقول الدهماء ويستقل بها افراد فى وقت من الأوقات ويعجز سائر البشر عنها . ومتى وجد العلم فى أمة فانه ينمو ويكمل بالتدريج وسنة الله تعالى فى ذلك ان المتأخر يكون ارقى من المتقدم لأن بداية الآخر من نهاية الأول ما لم يطرأ على الامة من الامراض الاجتماعية ما يوقف سير العلم فيها . وفى هذه الحالة لا يقال ان سنة الله تبدلت او بطلت لان

سنة الله تعالى فى المرضى غير سنته فى الاصحاء فاننا اذا غرسنا شجرة او ولد لنا ولد ومرّ عليه فى طور النموّ زمن ولم ينمُ فيه لا يصح لنا ان نستدل بذلك على انكار سنة النموّ فى النبات والحيوان بل علينا ان نبحث عن مرضه الذى عارض النموّ ونعالجه ليعود الى الأصل

(المقلد) : من أين جئت بهذه القاعدة التى لا تنطبق على علم الدين فانني لم ارها فى كتاب ولا سمعتها من احد من مشايخنا وما اراك الا مفتحراً لها فان لم يكن لك فيها نقل صحيح لا اسلم لك بها

(المصلح) : انى اخذت هذه القاعدة من الوجود وهو ارشد المعلمين وقد سلمت لي من قبل ان العلم الصحيح هو ما يشهد له الوجود . ولا يستثنى من هذه القاعدة الا العلوم المعدودة المسائل المحدودة الدلائل اذا استقصيت مسائلها او احصي منها قدر تتعذر الزيادة عليه وذلك كاللغة فاننا اذا احصينا مفردات لغة قوم او أحصينا بعضها وانقرضت الامة بعد ذلك يتعذر على المتأخر ان يزيد على المتقدم الذى احصى . فاذا قلت ان علم الدين من هذا القبيل فقد منعت الاجتهاد على الأولين والآخرين الا ما يتعلق بنقل الدين عمن جاء به وهو الشارع صلى الله عليه وسلم ومنعت التقليد ايضاً لأن الراوي لا يسمى مقلداً لمن روى هو عنه لأن التقليد هو أخذك بقول غيرك او رأيه لذاته لا لمعرفة دليله بحيث لو رجع لرجعت

(المقلد) : لا اقول ان جميع مسائل الدين مروية عن الشارع بالتفصيل والمرويّ انما هو الأصول الكلية وبعض الجزئيات والاجتهاد يكون باستنباط سائر الجزئيات بالقياس وغيره وبفهم النصوص والتمييز

بين ما يصح الاحتجاج به وما لا يصح وبوجوه الترجيح عند التعارض وغير ذلك مما هو مشروح فى علم الأصول

(المصلح) : إذَن تصدق قاعدتى فى علم الدين فالمسائل التى يسهل على كل احد فهمها بدليلها هى ما نقل عن الشارع لا سيما اذا كان النقل بالعمل او بين اجماله بالعمل وادلة هذه المسائل هى كونها مروية عن الشارع لان جميع ماورد عنه يجب ان يؤخذ بالتسليم من كل من اعتقد بالرسالة ويبقى التفاضل بين العارفين بهذه المسائل والاحكام فى الفقه بها بمعرفة حكمها وأسرارها . وسأبين منزلة هذه المسائل من الدين ، ومنزلة ما يؤخذ من استنباط المجتهدين ، بعد بيان المقدمات التي بدأت بها

(المقلد) : اذا تسنى لكل احد ان يفهم ما نقل من الدين عن الشارع بالعمل كيفية الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات فلا يتسنى لهم ان يفهموا ما نقل بالقول الا بواسطة المجتهد

(المصلح) : ان من المقدمات التى اردت سردها ماهو جواب عن قولك هذا ولكن (المقدمة الثانية) وهى ان فهم القرآن والسنة اسهل من فهم كتب الفقهاء لان كلامهما عربيٌّ مبين واسلوبهما فصيح لا شائبة للعجمة فيه فمن تعلم العربية ووقف على مفرداتها واساليبها لا يعانى فى فهمهما عشر معشار مايعانيه فى فهم كتب الفقهاء لاختلاف اساليبهم وبعدها فى الاكثر عن اسلوب اللغة الفصيح ولكثرة اصطلاحاتهم وخلافاتهم ولاضطراب الكثيرين منهم فى الفهم . ومن ينكر ان الله تعالى اعلم بدينه من الفقهاء واقدر على بيان ما علمه منهم او ينكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعلم بمراد الله من سائر خلقه واقدر على بيان ما علمه وانه قام حق القيام بأمر الله عز

وجل « يا أيها الرسولُ بلّغ ما أنزل اليك من ربّك وان لم تفعل فما بلّغت رسالته » ؟ ؟

(المقلد): ان المجتهدين بينوا مراد الله ورسوله لمن لم يستطع فهم كلامهما والفقهاء بينوا مراد المجتهدين لمن لم يستطع فهم كلامهم

(المصلح): لقد أكثرت الوسائط وعدلت عن قولى الاول وهو ان الله ورسوله اقدر على البيان ممن عداهما وان القول بأن بيان الرسول لم يكن كافياً للامة قول بأنه لم يبلغ رسالة ربه ومن يقول بهذا ؟ أما تعلم العربية فمن اسهل الامور على كل عاقل . ألم يهد لك كيف نبغ فيها الاعاجم عند ما كانت داعية الدين سائقة لهم اليها ؟ وهل هي الا لغة من احسن اللغات أو أحسنها واننا نرى الاطفال يتعلمون فى المدارس عدة من اللغات التى هي دون العربية فى التهذيب وسلامة الذوق وسهولة النطق

(المقلد): ان اذهان الناس وعقولهم فى هذا الزمان اضعف مما كانت عليه فى ازمنة المجتهدين ومن بعدهم كالزمخشرى والشيخ عبدالقاهر الجرجانى والسكاكي واضرابهم والدليل على هذا ان احدنا يمكث فى الجامع الازهر عشرين سنة ولا يقدر ان يفهم من كلامهم حق الفهم الا ما تلقاه عن المشايخ الذين تلقفوه عمن قبلهم

(المصلح): بيشك لا تلجئنى الى التكرار فى القول فقد قلت لك آنفاً ان هذا مرض اجتماعى عارض يجب ان نعالجه ومتى اصبنا علاجه الحقيقي يزول وتظهر فى ابناء عصرنا سنة الله فى ترقى الانسان كما ظاهرة فى غيرنا من الامم الذين يرتقون فى لغتهم وجميع علومهم . وان خمس سنين كافية لان يتعلم الطالب العربية فيخرج كاتباً وخطيباً يفهم جميع كلام البلغاء

اذا وجد من يعرف طريقة التعليم المثلى . ولكن اهل الازهر لا يعرفون هذه الطريقة ولا يقبلون من يعرفها من غيرهم واذا لم تصدقوا فجربوا وانا الذى اقوم بذلك أو ادلكم على من يقوم به

(المقلد) : انى لا استطيع ان انكر عليك ذلك ولا ان اسلم لك به فدعنا منه واذكر لى بقية مقدماتك فانى اراك تخلق لى مسائل غير ما اتعبت نفسى فى مطالعته عدة اشهر واوجو ان تجيء مناسبته فى النتيجة

(المصلح) : المقدمة الثالثة — لو ان اكثر الناس يعجزون عن فهم الدين مما يبلغ الرسول من كتاب يكتب ويتلى وسنة يعمل بها لما كلفهم الله به (المقدمة الرابعة) ان الله امر الناس بان يكونوا على بصيرة فى دينهم فقال « قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني » (المقدمة الخامسة) : ان الله تعالى ذم التقليد ونعى على اهله ووبخهم فى آيات منها قوله تعالى بعد الاحتجاج على المشركين وبيان انه لا حجة لهم: « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمةٍ وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذيرٍ الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمةٍ وانا على آثارهم مقتدون ، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون . » فقد احتج على المقلدين بأنه يجب عليهم النظر واتباع ما هو أهدى ولم يعذرهم بالتقليد فدلّ على انه غير مقبول عنده . ولو كان التقليد عذراً لأحد لكان جميع الكفار والمشركين معذورين عند الله تعالى فى عدم اتباع الحق بحجة أنهم ليس لهم نظر يميزون به بينه وبين الباطل

(المقلد) : ان التقليد ليس عذراً فى اصول الدين وعقائده بخلاف الفروع

(المصلح) : ان فهم فروع الدين بأدلتها اسهل من فهم اصوله وعقائده بالبرهان لأن ادلة الفروع هو نقلها بطريقة تثق بها النفس ولكن العقائد لا بد فيها من براهين عقلية فكيف يكلفهم بالشاق ويعذرهم بما لا مشقة فيه . نعم ان استنباط المسائل النادرة بالقياس والرأي اصعب من فهم العقيدة ببرهانها ولكن هذه المسائل مما يعذر الفقهاء الجاهل بها اذا لم يرعها في عمله وسيأتي بيان ذلك . وانت تعلم ان ما علم من الدين بالضرورة من مسائل الاعمال حكمه حكم العقائد كالصلاة بالكيفية المعروفة وعدد ركعاتها وكالصوم والزكاة والحج وكل هذا منقول بالعمل تواتراً لا كلفة على احد في فهمه وانما وضع البحث المسائل الشاذة والنادرة . (المقدمة السادسة): ان الله تعالى ايد الانبياء بالآيات الدالة على صدقهم ليكون متبعهم على بصيرة وبينة في دينه ولم يؤيد المجتهدين بمثل ذلك فمن اخذ بقولهم لا يكون على بصيرة ومن كان كذلك فهو على غير سبيل الرسول بحكم النص (المقدمة السابعة) انا نهينا عن السؤال عما لم يبين لنا . قال تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تُبْدَ لكم تَسُؤكُم » . وفي صحيح مسلم : خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : « ايها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » فقال رجل — هو الاقرع بن حابس — أكلَّ عام يارسول الله . فسكت عليه الصلاة والسلام حتى قالها ثلاثاً فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال « ذروني ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم على انبيائهم فاذا امرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فدعوه » وذكر ابن حبان ان الآية نزلت لذلك . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله قد فرض

فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم اشياء فلا تنتهكوها وسكت عن اشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » رواه الدار قطني عن ابي ثعلبة الخشني رضي الله عنه واورده النوويّ في الاربعين وحسنه وصححه ابن الصلاح ورواه آخرون . كل هذا كان قبل اكمال الدين أفلا يكون بعد اكماله آكد وأولى ؛ ولكننا لم نمتثل كل هذه الاوامر والنواهي وأنشأنا نفرض مسائل ونخترع لها احكاماً نستدل عليها بضروب من الآراء والاقيسة الخفية او غير الخفية وهي تتعلق بأمور العبادات التي لا مجال للعقل فيها فوسعنا الدين بذلك وجعلناه اضعاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم واوقعنا المسلمين في الحرج والعسر المنفيين بنص القرآن ولا حجة لنا في هذا الا تقليد بعض الفقهاء الذين فرضتم علينا اتباع ما يقولون وان خالف صريحاً ما يقول الله ورسوله

(المقلد) : اعوذ بالله اعوذ بالله ما اراك يا هذا الا ظاهرياً تنكر القياس وهو من اصول الدين وتزعم ان الائمة زادوا في الدين ما ليس منه

(المصلح) : مهلاً مهلاً أنا لا انكر القياس بالمرة ولكنني اقول كما قالوا : ان الأمور التعبدية لا قياس فيها وأقول ان العبادات كلها قد تمت وكملت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كالعقائد فليس لأحد ان يزيد في الدين شيئاً يتعلق بالعبادة كما لا يزيد شيئاً يتعلق بالعقائد لأن الاعتقادات والعبادات هي الدين الذي قال الله تعالى فيه « اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً » واما القياس والرأي الذي تسميه الحنفية استحساناً فينبغي ان يكون مخصوصاً فيما يختلف باختلاف الزمان والمكان كالمعاملات والأقضية واما الاعتقاد والعبادة اللذان يرضاهما

الله تعالى فلا يختلفان باختلاف الزمان وهذه هي (المقدمة السابعة) مما اردت تقديمه على بيان رأيي فى الوحدة الاسلامية مع احترام الائمة والاعتراف بفضلهم والاهتداء بهديهم (المقدمة الثامنة) هى ان الأئمة انفسهم نهوا عن التقليد وحرموه وسألو عليك اقوالهم فيه . وأما النتيجة فهى

(المقلد) : انظرني فقد كلّ ذهني وسمعت ما لم يكن يخطر لي ببال. انظرني حتى اراجع تفسير الآيات التى اوردتها وشروح الاحاديث التى سردتها ، وسأعود اليك قبل عيد الاضحى لإتمام المناظرة وان كان الوقت قصيراً وكان فى عزمي ان اقضي أيام العيد فى الأرياف

(المصلح) : لك ذلك وانني انتقد على الناس لا سيما الوجهاء منهم مغادرة بيوتهم فى ايام العيد الذى يستحب فيه الفرح والسرور مع الأهل والاقارب الا من كان اهله خارج مصر وكان موظفاً يتربص مثل هذه الفرصة لزيارتهم . ثم انصرفا على ان يعودا عن قريب